

حِكَايَاتُ النُّور
البَدْلَةُ الثَّمِينَة
نور باقدمير


البَدْلَةُ الثَّمِيْنَةَ

شادي شاب في ريعان شبابه، همّه التسلية والمتعة ليل نهار، كثيرًا ما نصحه الصّغار والكبار، لا شيء من ذلك يثنيه عن هواياته الصبيانيّة...



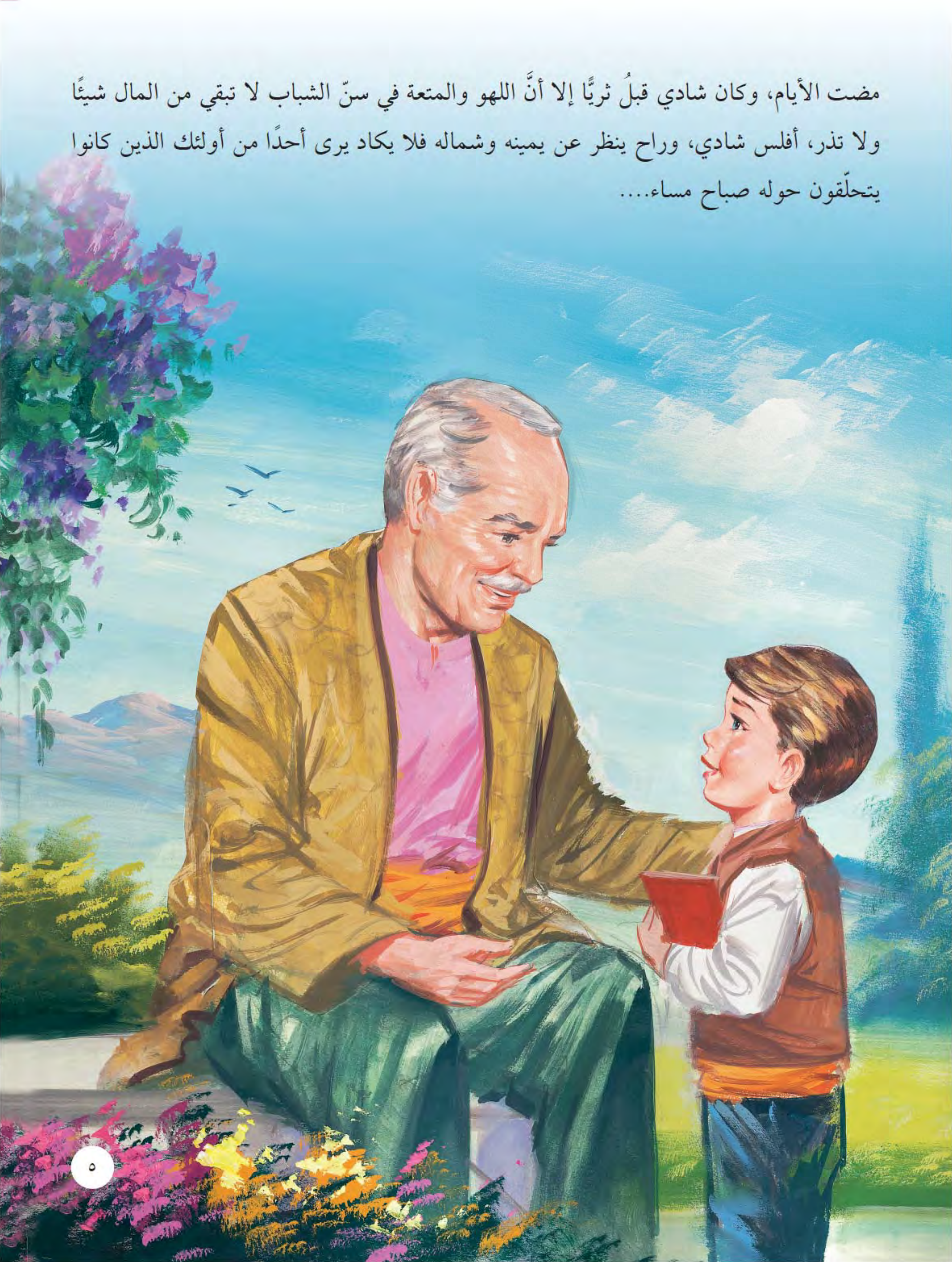
أحد جيران شادي رجل حكيم وتاجرٌ ماهر، يعيش مع عائلته وخدمه في قصر عظيم في مزرعة ساحرة تسر الناظرين، جدران القصر وأعمدته يكسوها بلاط زيّنته أيادي الفنانين الماهرة، اشتهر هذا التاجر بين أهل بلدته بالصدق والأمانة، وأكثر من ذلك حكمته الباهرة وتربيته الفذّة، وقته منضبط كعمله تمامًا، يقدُر نفسَه قدْرَها، وليس من أحد إلا ويتمنى أن يحظى بالعمل معه.

عجب الناس لأمره أيما عجب؛ كثير المطالعة لا يفتر ولا يملّ من تربية الناشئة وتعليمهم رغم ما هو فيه من شغلٍ شاغل في التجارة...



والأعجب من هذا أنَّه يجعل ربحه أثلاثًا، ثلث منها يصرفه في أعمال الخير والبرّ، يساعد هذا ويساند ذاك، حتى إنّ أهل البلدة لا سيما التجار كثيرًا ما كانوا يتهمونه بالتبذير، إلا أنّه لم يكن يلتفت إلى شيء من هذا القيل والقال، وشعاره وشعوره: أعمال الخير لا تضيع، لكن الخسارة كلّ الخسارة أن يهدر المال في اللهو واللعب والمتعة...





مضت الأيام، وكان شادي قبلُ ثريًّا إلا أنَّ اللهو والمتعة في سنّ الشباب لا تبقي من المال شيئًا ولا تذر، أفلس شادي، وراح ينظر عن يمينه وشماله فلا يكاد يرى أحدًا من أولئك الذين كانوا يتحلّقون حوله صباح مساء....

سمع الحكيم بخبره، فذهب ليزوره ويطمأن عليه...

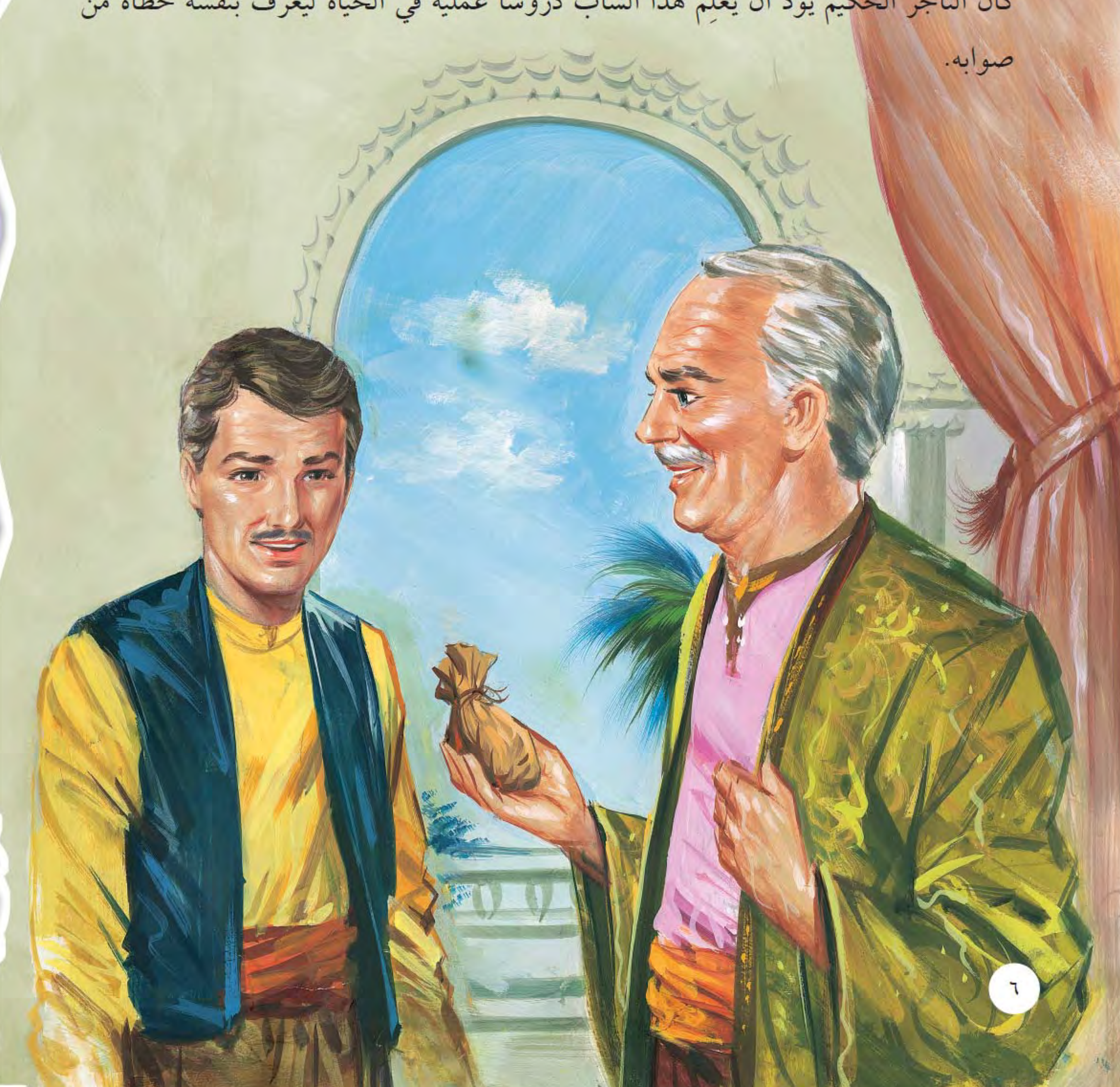
الحكيم: ما رأيك يا شادي أن تجدّ وتجتهد وترى شكلًا آخر للحياة غير الذي كنت تعرف؟

شادي: نِعمَ ما تقول يا عمّ، ولكن أين ومتى وكيف سأعمل، والناس تعرف من أنا؟

الحكيم: لا حرج، تعال نعمل معًا فأنت أخ طيّب وشاب ذكيّ...

شادي: بكلّ فرح وسرور.

كان التاجر الحكيم يودّ أن يعلِّم هذا الشاب دروسًا عمليَّة في الحياة ليعرف بنفسه خطأه من صوابه.



الحكيم: أهلًا وسهلًا، تفضَّل يا شادي...

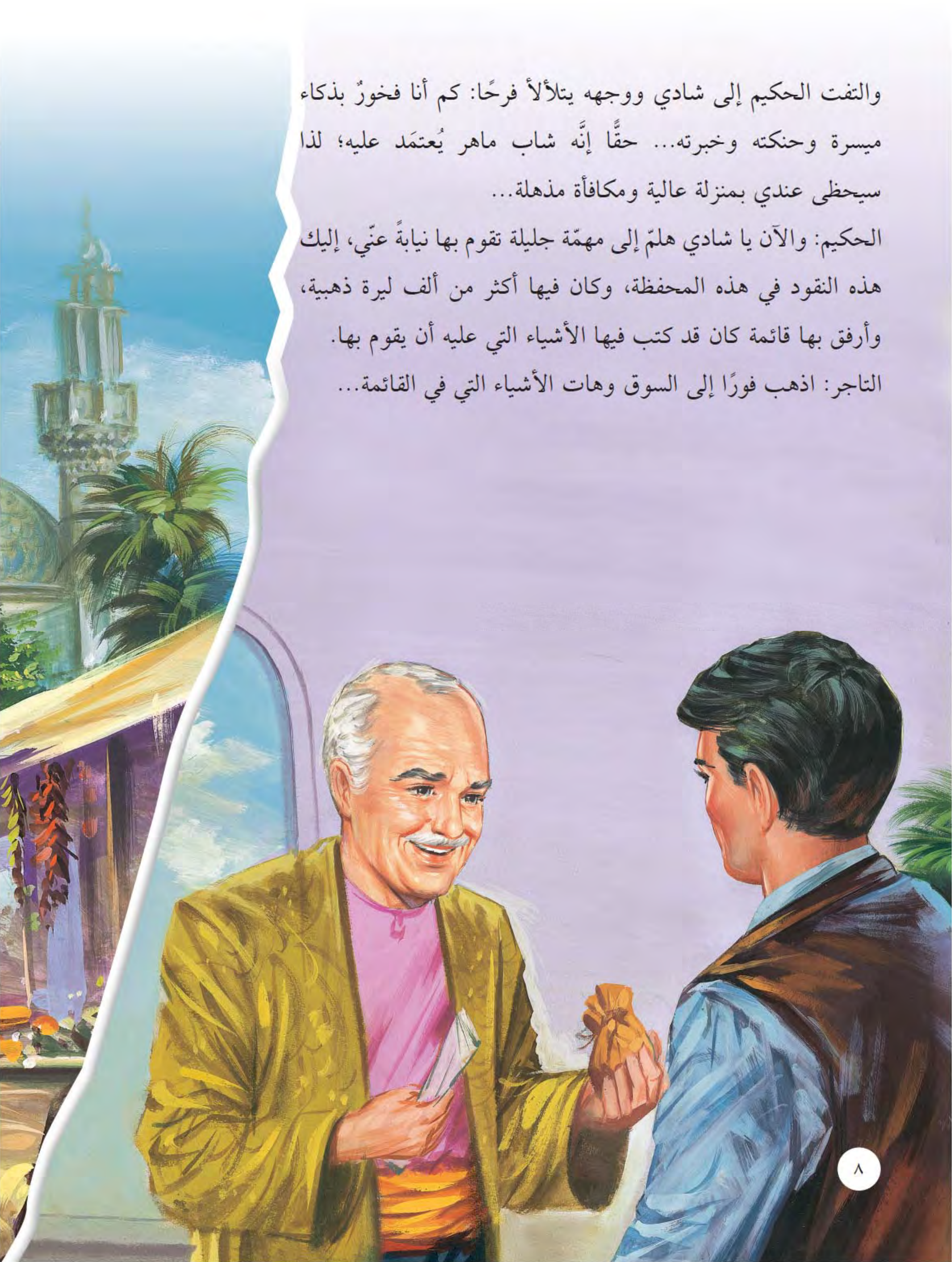
نادى التاجر الحكيم أحد عمَّاله: تعال يا ميسرة، ثم التفت إلى شادي: أودّ أن تفتح عينيك وتنتبه بدقّة لما سيحدث...

أعطى التاجر ميسرةَ عشرين ليرةً ذهبيَّة كانت تتلألأ في يده ويلمع بريقها تحت أشعّة الشمس، وقال له: اذهب إلى السوق وهات بدلة من أفضل أنواع الأقمشة...

سارع ميسرة إلى السوق، وما لبث أن عاد وهو يرتدي بدلة من الكتان الممتاز، يبدو أنه اتخذ قرارًا موفَّقًا، وعقد صفقة رابحة...

كال التاجر لميسرة الثناء كيلًا، وقال له وعيناه تبرقان فرحًا وفخرًا به وسرورًا: أحسنت! أحسنت، وفّقك الله، لقد أنفقت النقود بحكمة بالغة، أهنئك على ذوقك واختيارك.

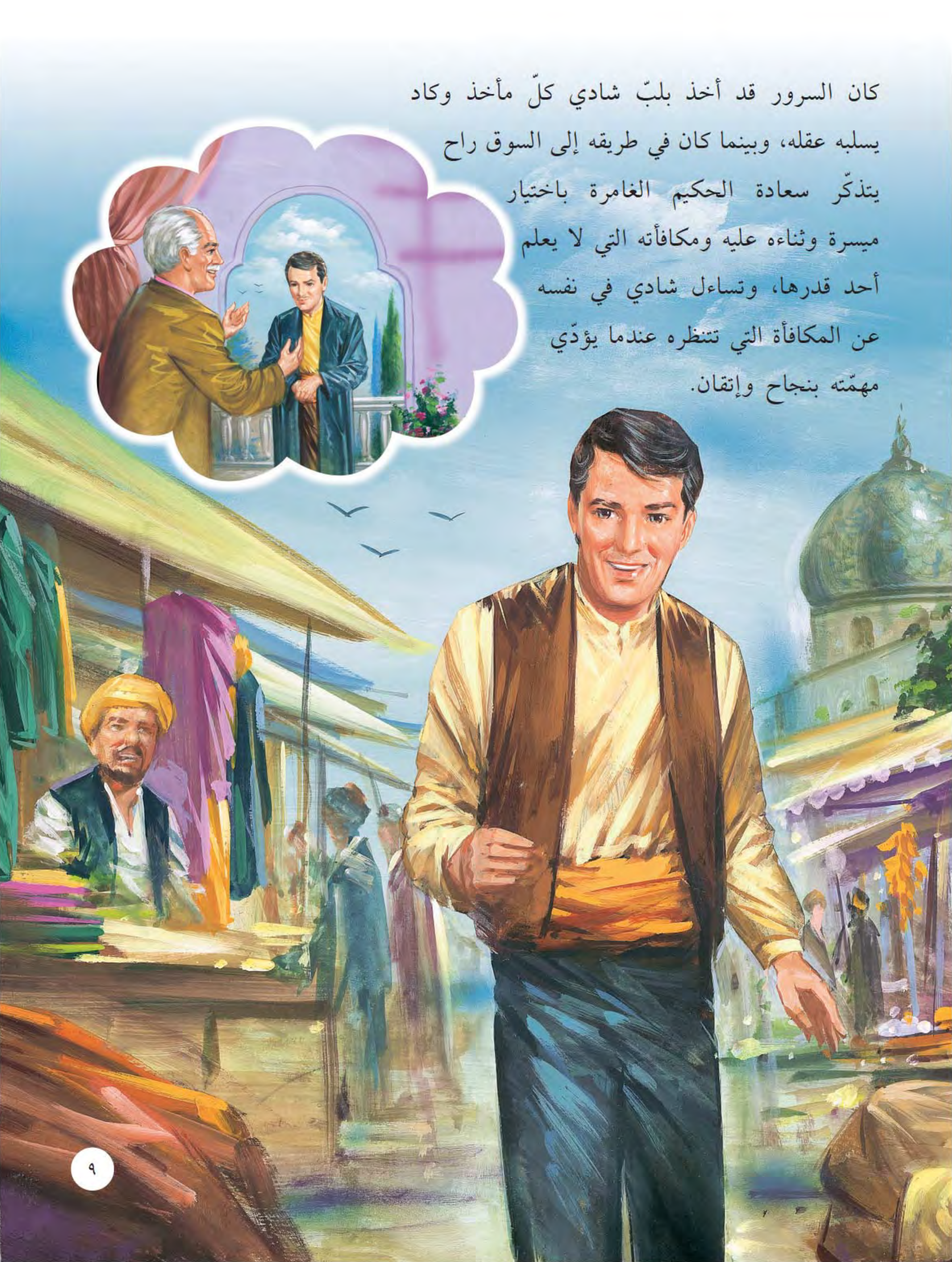




والتفت الحكيم إلى شادي ووجهه يتلألأ فرحًا: كم أنا فخورٌ بذكاء ميسرة وحنكته وخبرته... حقًّا إنَّه شاب ماهر يُعتمَد عليه؛ لذا سيحظى عندي بمنزلة عالية ومكافأة مذهلة...

الحكيم: والآن يا شادي هلمّ إلى مهمّة جليلة تقوم بها نيابةً عنّي، إليك هذه النقود في هذه المحفظة، وكان فيها أكثر من ألف ليرة ذهبية، وأرفق بها قائمة كان قد كتب فيها الأشياء التي عليه أن يقوم بها.

التاجر: اذهب فورًا إلى السوق وهات الأشياء التي في القائمة...



كان السرور قد أخذ بلبّ شادي كلّ مأخذ وكاد يسلبه عقله، وبينما كان في طريقه إلى السوق راح يتذكّر سعادة الحكيم الغامرة باختيار ميسرة وثناءه عليه ومكافأته التي لا يعلم أحد قدرها، وتساءل شادي في نفسه عن المكافأة التي تنتظره عندما يؤدّي مهمّته بنجاح وإتقان.

أخذ شادي يحدّث نفسه وقد نسي أمر القائمة: وأنا كذلك سأشتري بدلة لم يلبس أحد مثلها من قبل، ولسوف يرون من براعتي ومهارتي في التجارة ما لم يروه من أحد، وبذلك أستحقّ أفضل الثناء وأثمن مكافأة...

سارع شادي الى السوق ودخل أوّل متجر رآه، وكان متجرًا برّاقًا أنيقًا، ولم يتردد شادي في شراء بدلة من هذا المتجر...



شادي: تفضل النقود، ووضع بين يديه محفظة النقود، هات يا عمّ بدلة من أفضل ما في البلد من أقمشة.

البائع الماكر مبتسمًا وقد سال لعابه على ما في محفظة هذا الشابّ السّاذج: تفضَّل إلى صالة العرض الخاصّة بكبار رجال الأعمال، وكان البائع يقول في نفسه: يبدو هذا الشاب ساذجًا، فسيدفع ما في محفظته في هذه البدلة.



اختار البائع أرخص ما عنده، وعرض ذلك بين يدي الشاب الساذج، وأوهمه أنّها بدلة حيكت للملوك فحسب...

البائع بكلّ مكرٍ ودهاء: هذه أفضل بدلة في سوق الألبسة، وهذا القماش لا نظير له، استوردنا هذه البضاعة للزبائن المميزين مثلك.

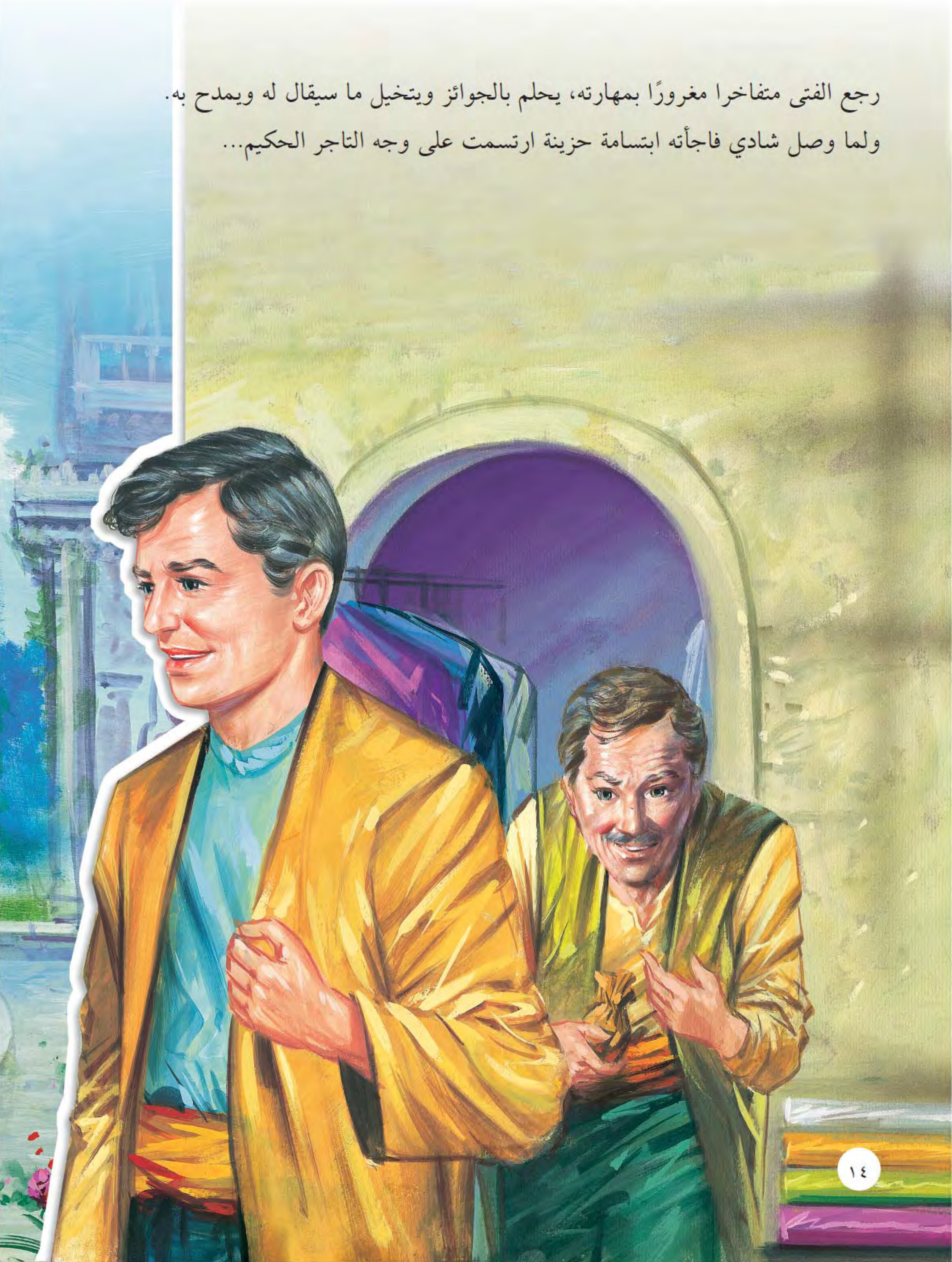
صدّق الشاب السّاذج كلام البائع الماكر واشترى منه بدلة لا تساوي شيئًا.



البائع المخادع وهو يرافق زبونه اللقطة إلى الباب: أنت محظوظ وموفّق، لم يسبقك أحد إلى الفوز بمثل هذه الصفقة، كأنَّك تاجر خبير ماهر تعرف السوق منذ ألف سنّة...

البائع مرَّةً أخرى: المحل محلّك، نحن بانتظار زيارتك، تشرّفنا في أيّ وقت...

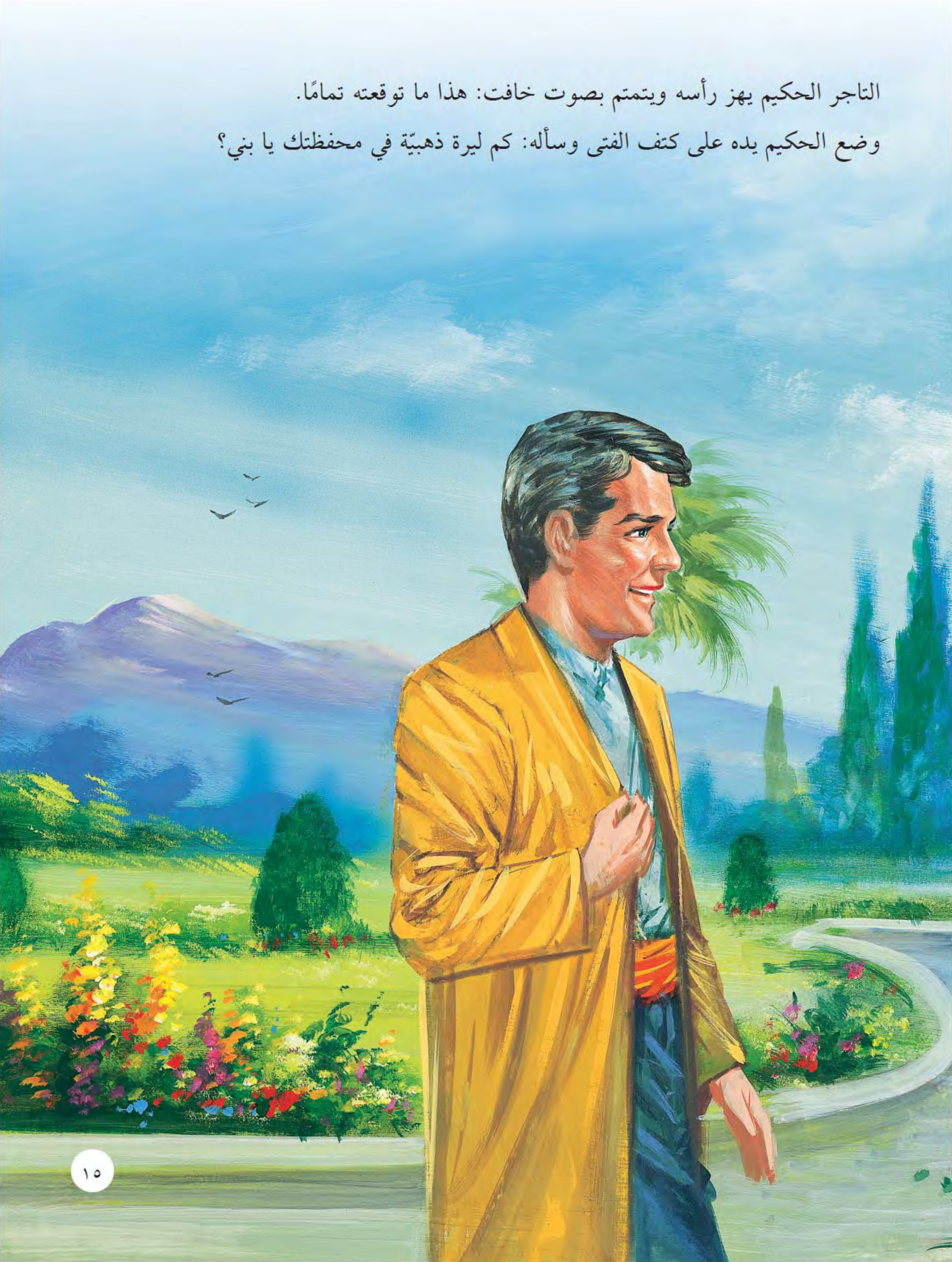




رجع الفتى متفاخرا مغرورًا بمهارته، يحلم بالجوائز ويتخيل ما سيقال له ويمدح به.
ولما وصل شادي فاجأته ابتسامة حزينة ارتسمت على وجه التاجر الحكيم...

التاجر الحكيم يهز رأسه ويتمتم بصوت خافت: هذا ما توقعته تمامًا.

وضع الحكيم يده على كتف الفتى وسأله: كم ليرة ذهبيّة في محفظتك يا بني؟





تلعثم شادي وقال: لا أدري، لم أعدّ النقود أصلًا.

الحكيم: ذكِّرني ما هي الأشياء المذكورة في القائمة؟

شادي مندهشًا: آه... لا أعلم أيضًا، في الحقيقة أنا لم أقرأها أصلًا.

الحكيم: اذًا ماذا فعلت بالليرات الذهبية؟

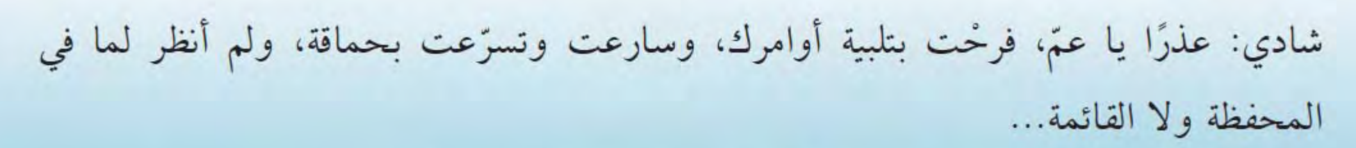
شادي بكلّ ثقة: اشتريت بها هذه البدلة الأنيقة يا عمّ.



الحكيم: اشتريتها بكل ما معك من نقود؟!

شادي: طبعًا يا عمّ، وهذا ما فعله ميسرة من قبل، وقد قلت له ما قلت...

الحكيم: طلبت من ميسرة شراء بدلة فقط، وأعطيته عشرين ليرة ذهبية... أمّا أنت فقد طلبت منك شراء أشياء كثيرة مذكورة في القائمة، وأعطيتك ألف ليرة ذهبية... ففعلْتَ ما فعلْت!!



شادي: عذرًا يا عمّ، فرحْت بتلبية أوامرك، وسارعت وتسرّعت بحماقة، ولم أنظر لما في المحفظة ولا القائمة...

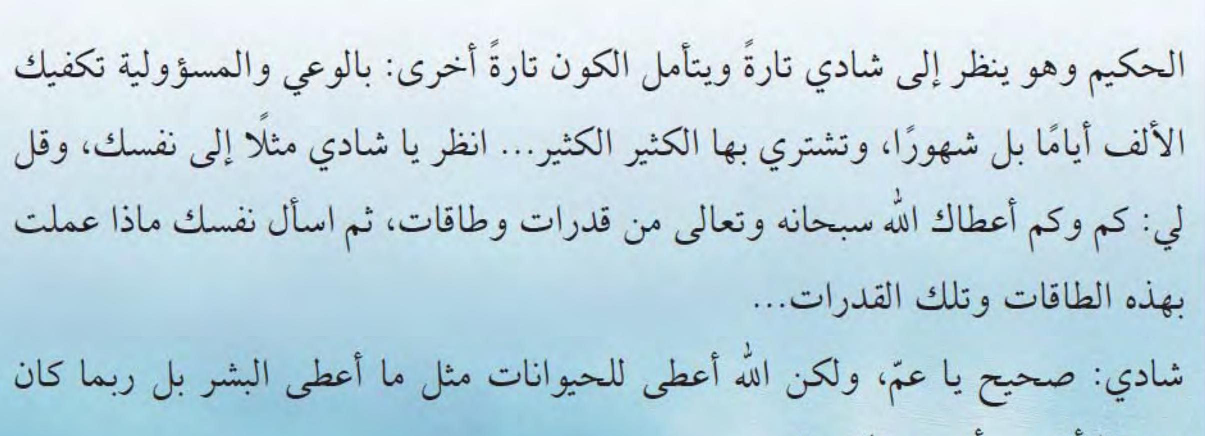
الحكيم: ستقع ضحية الغش دائما إذا لم تفكر جيّدا وتتصرف بحكمة.

الحكيم مرّةً أخرى: هذا البائع بلا ذمّة ولا ضمير، وستخبرك الأيام عنه، فالأمانة والصدق رأس مال التجارة، وكما تدين تُدان...

شادي: كأنَّك تريد أن تقول شيئًا تنصحني به يا عمّ.

شادي مستدركًا: هذا درس عمليّ لن أنساه أبدًا...

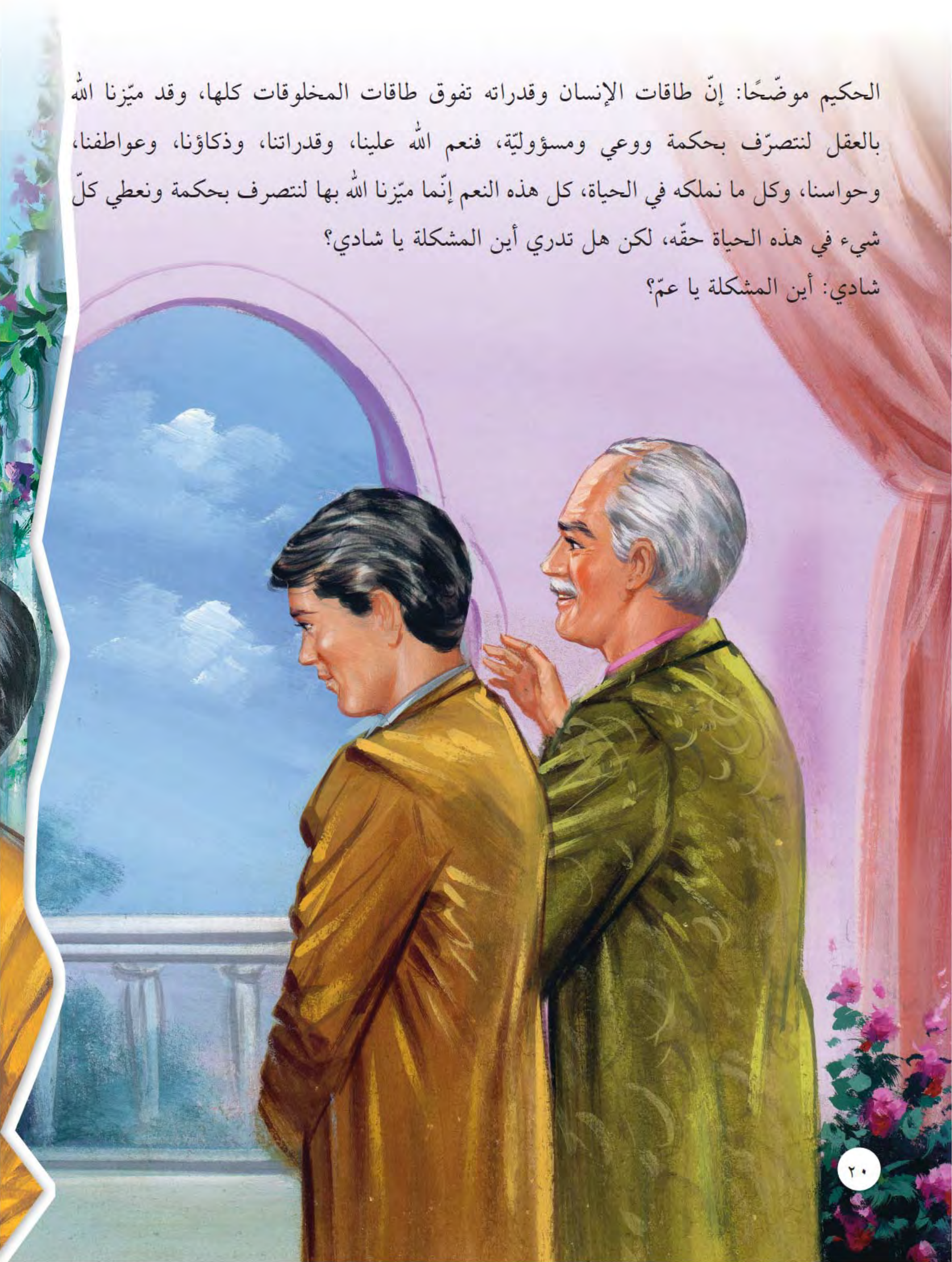
الحكيم: الصدق والأمانة والمسؤوليّة والوعي والمهارة رأس مال التجارة...



الحكيم وهو ينظر إلى شادي تارةً ويتأمل الكون تارةً أخرى: بالوعي والمسؤولية تكفيك الألف أيامًا بل شهورًا، وتشتري بها الكثير الكثير... انظر يا شادي مثلًا إلى نفسك، وقل لي: كم وكم أعطاك الله سبحانه وتعالى من قدرات وطاقات، ثم اسأل نفسك ماذا عملت بهذه الطاقات وتلك القدرات...

شادي: صحيح يا عمّ، ولكن الله أعطى للحيوانات مثل ما أعطى البشر بل ربما كان بعضها أقوى وأصبر، فلِمَ...؟

الحكيم: فهمت سؤالك يا شادي... لكن انظر الفرق يا شادي: هل خلقنا لخدمة الحيوان أم خلق الحيوان لخدمتنا؟



الحكيم موضّحًا: إنّ طاقات الإنسان وقدراته تفوق طاقات المخلوقات كلها، وقد ميّزنا الله بالعقل لنتصرّف بحكمة ووعي ومسؤوليّة، فنعم الله علينا، وقدراتنا، وذكاؤنا، وعواطفنا، وحواسنا، وكل ما نملكه في الحياة، كل هذه النعم إنّما ميّزنا الله بها لنتصرف بحكمة ونعطي كلّ شيء في هذه الحياة حقّه، لكن هل تدري أين المشكلة يا شادي؟

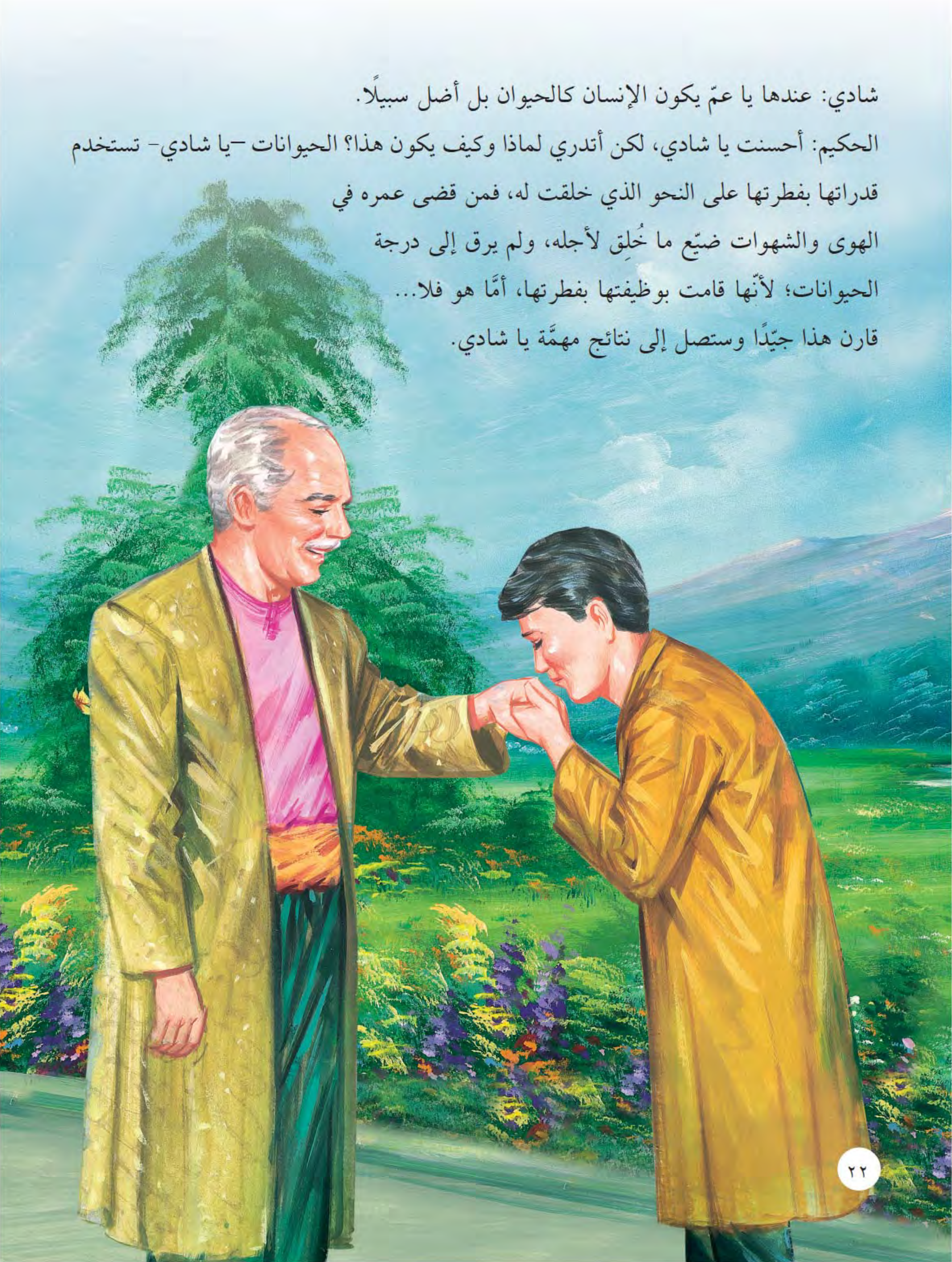
شادي: أين المشكلة يا عمّ؟

الحكيم: المشكلة أن نغفل عن الغاية من وجودنا ونشتغل بالأشياء الأخرى التي خلقها الله لنا وجعلها خادمةً لنا، حينئذٍ سيغدو الإنسان مشغولًا بغريزته، لا يفكر سوى بمطعمه ومشربه ومتعته... حينئذٍ تضيع طاقاتنا وقدراتنا التي ميّزنا الله بها وكان قد جعل كل شيء في خدمتنا من أجلها...

شادي: اشرح هذا الكلام بأسلوب بسيط يا عمّ...

الحكيم: ببساطة يا شادي من يضيع طاقاته وقدراته على اللذات والمتعة، مثَلُه مثَل من ينفق نقوده كلها في شراء بدلةٍ واحدة لا تساوي شيئًا، وبعدها يضرب يمينًا وشمالًا ليجد ما يشتري به طعامًا يأكله فلا يجد.

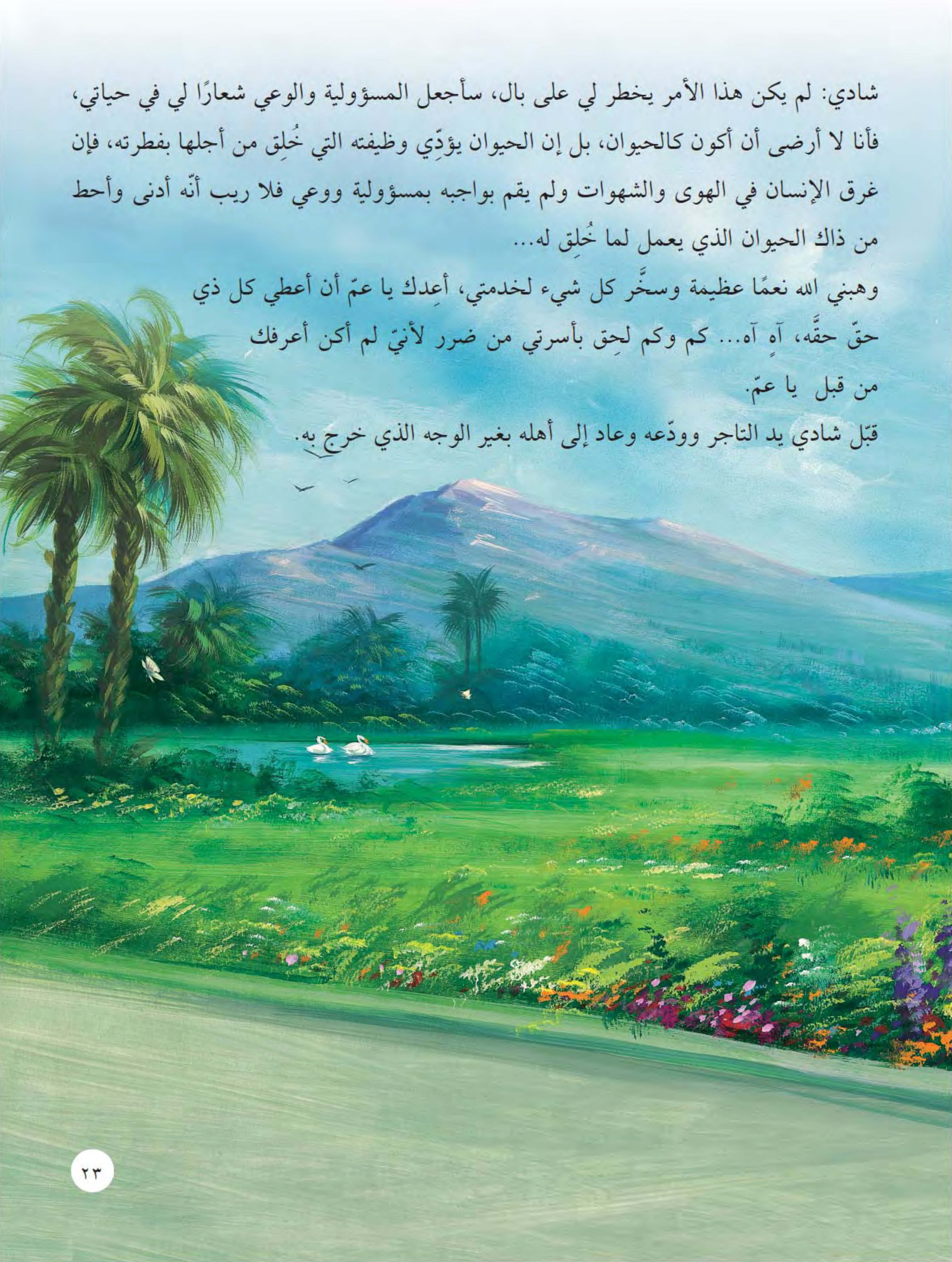




شادي: عندها يا عمّ يكون الإنسان كالحيوان بل أضل سبيلًا.

الحكيم: أحسنت يا شادي، لكن أتدري لماذا وكيف يكون هذا؟ الحيوانات -يا شادي- تستخدم قدراتها بفطرتها على النحو الذي خلقت له، فمن قضى عمره في الهوى والشهوات ضيّع ما خُلِق لأجله، ولم يرق إلى درجة الحيوانات؛ لأنّها قامت بوظيفتها بفطرتها، أمَّا هو فلا...

قارن هذا جيّدًا وستصل إلى نتائج مهمَّة يا شادي.



شادي: لم يكن هذا الأمر يخطر لي على بال، سأجعل المسؤولية والوعي شعارًا لي في حياتي، فأنا لا أرضى أن أكون كالحيوان، بل إن الحيوان يؤدِّي وظيفته التي خُلِق من أجلها بفطرته، فإن غرق الإنسان في الهوى والشهوات ولم يقم بواجبه بمسؤولية ووعي فلا ريب أنّه أدنى وأحط من ذاك الحيوان الذي يعمل لما خُلِق له...

وهبني الله نعمًا عظيمة وسخَّر كل شيء لخدمتي، أعِدك يا عمّ أن أعطي كل ذي حقّ حقَّه، آهٍ آه... كم وكم لحِق بأسرتي من ضرر لأنيّ لم أكن أعرفك من قبل يا عمّ.

قبّل شادي يد التاجر وودّعه وعاد إلى أهله بغير الوجه الذي خرج به.

ابتسم الحكيم وقال: الوفاء بالوعد من الإيمان، فكن من الذين يوفّون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق.

ومضى شادي في سبيله وهو يردّد قولة الحكيم هذه، وعاد إلى بيته ليرى الحياة بغير العين التي كان يراها بها من قبل...

